

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ
أَوَكَلِمَةٍ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِسَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنْ لَوْ يُشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنْصِبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تُحْلُ قَرْبَاهُمْ دَارُهُمْ
حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٣١)

و (لو) حَرْفُ شَرْطٍ يلزم لها جوابٌ شَرْطٌ ، وقد ترك الحق سبحانه جواب الشرط هنا اعتقاداً على يقظة المُسْتَمِعِ . وإن كان مثل هذا القول ناقصاً حين ننطق نحن به ، فهو ليس كذلك حين يأتي من قول الله سبحانه ؛ فهو كامل فيمن تكلم ، وقد تركها ليقظة المُسْتَمِعِ للقرآن الذي يبتدر المعاني ، ويتذكر مع هذه الآية قوله الحق :

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ^(١) فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧)

[الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ

(١) القارعة : الداهية تفجّلهم بكفرهم وعتوهم . ويقال : قرعه أمر إذا أصابه . قال ابن عباس : القارعة : النكبة . وقال أيضاً : القارعة : الطلائع والسرايا التي كان يُنفذها رسول الله ﷺ لهم . [تفسير القرطبي ٣٦٥٧/٥]

(٢) القِرطاس : الصميفة يكتب فيه من ورق أو نحوه . [الفاعوس القويم ١١٢/٢] . جمعها قراطيس ورد به قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَحْفَظُونَهُ قِرَاطِيسٍ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ..﴾ (٦٥) [الأنعام]

شَيْءٍ قَبْلَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَسَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يُجَاهِلُونَ ﴿١١١﴾

[الأنعام]

إذن : من كل نظائر تلك الآية التي نحن بصدد خواطرتها عنها
ناخذ جواب الشرط المناسب لها من تلك الآيات : فيكون المعنى :
لو أن قرأنا سُيِّرَتْ به الجبال ، أو قُطِّعَتْ به الأرض ، أو كَلَّمَ به
الموتى لَمَا آمَنُوا .

ويروى أن بعضاً من مشركي قريش مثل : أبي جهل وعبد الله
ابن أبي أمية جلسا خلف الكعبة وأرسلا إلى رسول الله ﷺ : وقال له
عبد الله : إن سَرَّكَ أن تتبعك فسيِّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فاذهبها
عنا حتى تنفسح . فإنها أرض ضيقة ، واجعل لنا فيها عيونا
وأنهاراً ، حتى نغرس ونزرع ، فلست - كما زعمت - بأهونَ على ربك
من داود حين سخر له الجبال تسير معه ، وسخر لنا الريح فنركبها
إلى الشام نقضى عليها مسيرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنا ، فقد
سخرت الريح لسليمان بن داود ، ولست بأهونَ على ربك من
سليمان ، وأحيى لنا قصباً^(١) جدك ، أو من شئت أنت من موتانا
نسأله ، أحق ما تقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يحيى الموتى ،
ولست بأهونَ على الله منه ، فأنزل الحق سبحانه هذه الآية وما قبلها
الرد عليهم^(٢) .

(١) القصب من العظام - كل عظم لجوف مستدير له شح . [لسان العرب - مادة : قصب] .

(٢) أورده اللطفي في تفسيره (٢٦٥٥/٥) وقال : قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد
وقتادة والضماك . وانظر : أسباب النزول (ص ١٥٧ ، ١٥٨) .

وكانت تلك كلها مسائل يتلککون بها ليعتدوا عن الإيمان :
فالرسول ﷺ قد جاء بمعجزة من جنس ما نبؤوا فيه : وجاء القرآن
يحمل منهج السماء إلى أن تقوم الساعة .

وقد طلبوا أن تبعد جبال مكة ليكون الوادئ فسيحاً : ليزرعوا
ويحصدوا : وطلبوا تقطيع الأرض ، أى : فصل بقعة عن بقعة : وكان
هذا يحدث بحفر جداول من المياه ، وقد قال الكافرون :

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝٩٠﴾ [الإسراء]

والمراد من تقطيع الأرض - حسب مطلوبهم - أن تقصر المسافة
بين مكان وآخر ، بحيث يستطيع السائر أن يسنريح كل فترة :
فالسائر يترك فى كل خطوة من خطواته أرضاً : ويصل إلى أرض
أخرى ، وكل يقطع الأرض على حسب قدرته ووسيلة المواصلات
التي يستخدمها .

فالمُتَرْف يريد أن تكون المسافة كبيرة بين قطعة الأرض
والأخرى : لأنه يملك الجياد التي يمكن أن يقطع بها المسافة
بسهولة ، أما مَنْ ليس لديه مطية : فهو يحب أن تكون المسافات
قريبة ليعتدوا أن يسنريح .

ونلاحظ نحن ذلك فى زماننا المعاصر ، فحين زاد الترف صارت
السيارات تقطع المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية دون توقف :
عكس ما كان يحدث قديماً حين كانت السيارات تحتاج إلى راحة
ومعها المسافرون بها ، فيتوقفون فى منتصف الطريق .

ومثل ذلك قد حدث في مملكة سبأ ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ ﴾ (١٩)

[سبأ]

أى : اجعل المسافة بين مكان وآخر بعيدة ، كي يتمكن المسافر القادر بالمناظر الطيبة^(١) .

ولاحظنا أيضاً تمادى المشركين من قريش في طلب المعجزات الخارقة : بأن طلبوا إحياء الموتى في قول الحق سبحانه :

﴿ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى ۖ ﴾ (٣٦)

[الرعد]

وبعضهم طلب إحياء قصي بن كلاب الجد الأكبر لرسول الله وقريش : ليسألوه : أحق ما جاء به محمد ؟ ولكن القرآن لم يأت لمثل تلك الأمور : وحتى لو كان قد جاء بها لما آمنوا .

ومهمة القرآن تتركز في أنه منهج خاتم صالح لكل عصر : وبذلك معجزته .

ويقول سبحانه :

﴿ بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۖ ﴾ (٣٦)

[الرعد]

وكلمة « أمر » تدل على أنه شيء واحد ، وكلمة « جميعاً » تدل على متعدد ، وهكذا نجد أن تعدد الرسالات والمعجزات إنما يدل على

(١) وذلك أن الله تعالى أنعم عليهم بأن جعل القرى ظاهرة والمسافات قريبة ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا فُرىً ظاهراً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيْرًا فِيهَا تَبَالَى رَأْيًا آمِنِينَ ﴾ [سبأ] . ولكنهم طلبوا من الله المبالغة بين أسفارهم فقالوا : ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَوْنَاهُمْ كُلَّ مَذْكُرٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ] .

أَنْ كُلُّ أَمْرٍ مِنْ أَمْرِ تِلْكَ الرِّسَالَاتِ إِنَّمَا صَدَرَ عَنِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ : وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَ كُلَّ مَعْجَزَةٍ لَتَنَاسِبَ الْقَوْمَ الَّذِينَ يَنْزِلُ فِيهِمُ الرِّسُولُ .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَأْسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا .. (٣٩) ﴾

[الرعد]

وكلمة « يئس » يُقَالُ إِنَّمَا هُنَا بِمَعْنَى « يَعْلَمُ » : فَهِيَ لُغَةٌ بِلَهْجَةِ قَرِيشٍ^(١) ، أَيْ : أَلَمْ يَعْلَمْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَ لَمْ يَهْتَدُوا : لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَشَأْ هِدَايَتَهُمْ .

وَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَوَدُّونَ أَنْ يُؤْمِنَ صَنَادِيدُ قَرِيشٍ كَيْ يَخْفُؤَ الْجَهْدُ عَنِ الْفِتْنَةِ الْمُسْلِمَةِ : فَلَا يَضْطَهُدُونَهُمْ ، وَلَا يَضَايِقُونَهُمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ وَلَا فِي عِيَالِهِمْ .

وَيُوضِحُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ هُنَا أَنَّ تِلْكَ الْمَسْأَلَةَ لَيْسَتْ مُرْتَبِطَةٌ بِرَغْبَةِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَؤُلَاءِ : بَلِ الْإِيمَانُ مَسْأَلَةٌ تَتَطَلَّبُ أَنْ يُخْرِجَ الْإِنْسَانُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ عَقِيدَةٍ ، وَيَنْظُرَ إِلَى الْقَضَايَا بِتَجَرُّدٍ ، وَمَا يَقْتَنِعُ بِهِ يُدْخِلُهُ فِي قَلْبِهِ .

وَبِذَلِكَ يَمْتَلِئُ الْوَعَاءُ الْعَقْدِيُّ بِمَا يُفِيدُ : كَيْ لَا تَدْخُلَ فِي قَلْبِكَ عَقِيدَةٌ ، وَتَأْتِيَ عَقِيدَةٌ أُخْرَى تَطْرُدُ الْعَقِيدَةَ ، أَوْ تُزَيِّغُ قَلْبَكَ عَمَّا تَعْتَقِدُ ، يَقُولُ تَعَالَى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. (٤) ﴾

[الاحزاب]

فَالْوَعَاءُ الْقَلْبِيُّ كَالْوَعَاءِ الْمَادِيِّ تَمَامًا : لَا يَقْبَلُ أَنْ يَتَدَاخَلَ فِيهِ

(١) قيل : مَوْلَاةُ هَؤُلَاءِ . أَيْ : أَفَلَمْ يَعْلَمْ . وَحَكَاهُ الْقُشَيْرِيُّ عَنْ بَنِي عَبَّاسٍ . ذَكَرَهُ الْقُرْمَلِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٦٥٦/٥) .

جِرْمَانِ أَبَدًا ، فَإِنْ دَخَلَ جِرْمٌ عَلَى جِرْمٍ ؛ إِنْ كَانَ أَقْوَى فَهُوَ يَطْرُدُ مِنَ الْقَلْبِ الْأَدْنَى مِنْهُ .

والمثلُّ على ذلك : لنفترض أن عندنا إناءً ممتلئاً عن آخره ؛ ويحاول واحدٌ منا أن يضع فيه كرةً صغيرة من الحديد ؛ هنا سيجد أن الماء يفيضُ من حوافِ الإناءِ بما يُوازِي حجمَ كرة الحديد ، وهنا ما يحدث في الإناء المادي ، وكذلك الحال في الإناء العقدي .

ولذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي :

« لَا يَجْتَمِعُ حَبِيٌّ وَحُبُّ الدُّنْيَا فِي قَلْبٍ » ^(١) .

وهكذا نرى أن هناك حيزاً للمعاني أيضاً مثلما يوجد حيزٌ للمادة . فإذا كنتَ تريد - حقيقةً - أن تدخلَ المعاني العَقَدِيَّةَ الصحيحة في قلبك ؛ فلا بدُّ لك من أنْ تطوِّرَ أولاً المعاني المناقضة من حيزِ القلب ، ثم ابحثْ بالأدلة عن مدى صلاحية أيٍّ من المعنيين ؛ وما تجده أقوى الدليل ؛ صحيح المنطق ؛ موفور القوة والحُجَّة ؛ فأدخلْهُ في قلبك .

ولم يفعل الكفار هكذا ؛ بل تصادفوا في الغيِّ إصراراً على ما يعتقدون من عقيدة فاسدة ؛ أما مَنْ أسلم منهم فقد أخرج من قلبه العقيدة القديمة ؛ ولم يُصِرْ على المُعْتَنَق القديم ؛ بل درسَ وقارنَ ؛ فأسرع إلى الإسلام .

(١) لورد أبي حامد الغزالي في الإحياء (٢٠٨/٢) آثاراً توضح عدم اجتماع حب الدنيا وحب الآخرة في قلب عبد . قال : « قال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك » .

أما مَنْ كان قلبه مشغولاً بالعقيدة السابقة ؛ ويريد أن يدخل العقيدة الإسلامية في قلبه ؛ فهو لم ينجح في ذلك ؛ لأن قلبه مشغولٌ بالعقيدة القديمة .

وإذا كنت يا رسول الله ﷺ تريد من هؤلاء أن يؤمنوا ؛ فلا بد أن يعتمد ذلك على إرادتهم ، وأن يُخرجوا من قلوبهم العقيدة الفاسدة ؛ وأن يبحثوا عن الأصح والأفضل بين العقيدتين .

ولذلك يعلمنا الحق سبحانه كيف نصل إلى الحقائق بسهولة ، فيقول لرسوله ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِرَأْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خُفٍّ ﴾ (١٦) [سج]

أي : قل يا محمد لمن كفر بك : إنني أعطكم عظة ، وأنت لا تعظ إلا مَنْ تحب أن يكون على الحق ؛ وهذا يُفسر قول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ^(١) حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٧٨) [التوبة]

ولهذا يريد ﷺ أن تكونوا مؤمنين ؛ لذلك يدعوكم أن تقوموا لله ؛ لا لجاء أحد غيره ؛ لأن جاء أي كائن سيزول مهماً كان هذا الواحد ، ولا تقولن أنفسك : إن العبيد سيتساوون معك .

بل قم لله إما متنى أي أن تكون قائماً ومعك آخر ؛ أو يقوم غيرك

(١) الجنة : الجنون .

(٢) العنت : العسقة . وأعطته : لوقها في العنت وشق عليه . [المأموس النويم ٣٩/٢] .

اثنين اثنين ليتناقش كل منكم مع مَنْ يجلس معه : ولا يتحيز أحد منكم لفكر مُسبق بل يُوجِّه فكره كله منجرباً لله .

وليتساءل كل واحد : محمد هذا ، صفته كذا وكذا ، وقد فعل كذا . والقرآن الذي جاء به يقول كذا ، وسيجد الواحد منكم نفسه وقد اهتدى للحق بينه وبين نفسه . وبينه وبين مَنْ جلس معه ليناقشه فيستعرضان معه تاريخ محمد ﷺ وما جاء به .

وحين يتناقش اثنان لن يخاف أيُّ منهما أن يهزمه الآخر ، لكن لو انضمَّ إليهما ثالثٌ : فكل واحد يريد أن يعتز برأيه : ويرفض أن يقبل رأى إنسان غيره . ويخشى أن يُعتبر مهزوماً في المناقشة : ويرفض لنفسه احتمال أن يستصغره أحد .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ مَثْنَى وَفِرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ۖ ﴾ (٤٦) [سبا]

و « الجِنَّة » هي اختلال العقل : أي : أن مَنْ به جِنَّة إنما يتصرف ويسلك بأعمال لا يرتضيها العقل .

ويقرن الحق سبحانه بين العقل وبين الخلق ، فيقول :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤) [القلم]

ويُقال : فلان على خُلق . أي : يملك من الصفات ما يجعله على الجائدة من الفضائل : مثل الصدق والأمانة : وهذه صفات يُنظمها في مواقفها الفكر العقلي : وهو الذي يُميّز لنا أي المواقف تحتاج إلى حِدَّة : أو لين : أو حكمة ، وكل هذه أمور يربِّتها العقل .

والخلق الرفيع لا يصدر عن مجنون ؛ لأنه لا يعرف كيف يختار
بين البدائل ؛ لذلك لا نحاسبه نحن ؛ ولا يحاسبه الله أيضاً .

وحين يأمرهم الحق سبحانه أن يبحثوا ؛ هل محمد يعاني من
جنّة ؟ فالحق سبحانه يعلم مقدّمًا أن رسول الله ﷺ بشهادتهم يتمتع
بكمال الخلق ؛ بدليل أن أهم ما كانوا يملكونه كانوا يستأمنون عليه
رسول الله ﷺ .

وبدليل أنه ﷺ حينما دخل عليهم وكانوا مختلفين في أمر بناء
الكعبة ؛ ارتضوه حَكَمًا^(١) .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِمُجْتَنِبٍ رَبِّكَ بِمُجْتَنِبٍ (٢) ﴾

[القلم]

وهكذا رأينا أن هؤلاء الكفار ما كانوا ليؤمنوا ؛ ولم يكن الله
ليشهد عليهم ؛ لأنهم كانوا لا يملكون أدنى استعداد للهداية ؛ وكانهم
أدمنوا الكفر والعياذ بالله ؛ وقد طبع الله على قلوبهم قزاهم كفرة ؛

(١) كان ضمير رسول الله ﷺ حينئذ خبثاً وثلاثين سنة . أي ؛ قبل البعثة بخمس سنين .
وذلك أن ليلال قريش اختصمت فيما بينها من يضع الحجر الذي في موضع الركن . حتى
أنهم اعتدوا للقتال ، ثم إنهم اجتمعوا في البيت الحرام وتشارروا . فاشار أبو أسية بن
المغيرة عليهم بأن يُحْكَموا أول داخل عليهم من باب بني ثببة . فكان أول من دخل عليهم
رسول الله ﷺ . فلما رأوه قالوا : « هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد » . فقال ﷺ : « هلم
إليّ ثوباً » . فأتى به . فآخذ الركن فوضعه فيه بيده . ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من
الثوب . ثم ارمعوه جميعاً . ففعلوا . حتى إذا جفوا به موضعه . وضعه هو بيده . ثم بنى
عليه . انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١٩٦/١ ، ١٩٧) .

فَمَا فِي تِلْكَ الْقُلُوبِ مِنْ كُفْرٍ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا ؛ وَمَا بِخَارِجِهَا لَا يَدْخُلُ فِيهَا .

وقد ظنَّ بعض من المسلمين أن كُفْرَ هؤلاء قد يُشَقِّقِ المؤمنين بزيادة العنت من الكافرين ضدهم ؛ لذلك يوضح الحق سبحانه لأهل الإيمان أن نُصْرَهُ قريب ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيْبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٢١) [الرعد]

أى : اطمئنوا يا أهل الإيمان ؛ فلن يظلَّ حال أهل الكفر على ما هو عليه ؛ بل ستصيبهم الكوارث وهم فى أمانتهم ، وسيشاهدون بأعينهم كيف ينتشر الإيمان فى المواقف التى يسودونها ؛ وتتسع رقعة أرض الإيمان ، وتضيّق رقعة أهل الكفر ؛ ثم يأتى نُصْرُ الله ؛ وقد جاء نُصْرُ الله ولم يبقَ فى الجزيرة العربية إلا مَنْ يقول : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

وهكذا تنبأت الآية بمجىء الأمل بعد اليأس ، كى لا يظلَّ اليأس مُسيطرًا على حركة المسلمين وعلى نفوسهم ، واستجاب الحق سبحانه لدعوته ﷺ حين دعاه قائلاً : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف »^(١) .

وَقُتِلَ صِنَادِيْدُهُمْ وَاحِدًا وَرَاءَ الْآخَرِ ؛ وَلَكِنْ عَنَانُهُمْ اسْتَمَرَّ ؛ وَبَلَغَ

(١) من أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : « اللهم أشد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) . وأحمد فى مسنده (٤٧٠/٢ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

العناد حَدُّ أَنْ ابْنَتِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَتْ مُتَزَوِّجَتَيْنِ مِنْ ابْنِي أَبِي لَهَبٍ ؛ فَلَمَّا أَعْلَنَ النَّبِيُّ ﷺ رِسَالَتَهُ ؛ قَالَ أَبُو لَهَبٍ وَزَوْجَتُهُ ؛ لَا بَدَّ أَنْ يُطْلَقَ ابْنَاؤُنَا بَنَاتِ مُحَمَّدٍ ؛ فَلَمَّا طُلِقَ أُوْلَاهُمَا بَنَتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِلًا ؛ « أَمَا إِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَسْلُطَ عَلَيْهِ كَلْبُهُ »^(١) .

وَمَا هُوَ أَبُو لَهَبٍ الْكَافِرُ يَقُولُ ؛ « لَا تَزَالُ دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ عَلَى ابْنِي تَشْغُلُ بَالِي وَتُثْقِلُنِي ، وَأَخْصِفُ أَنْ أَيْعِثَ بَوْلْدِي إِلَى رَحَلَةِ الشَّامِ كَيْ لَا تَسْتَجِيبَ السَّمَاءُ لِدَعْوَةِ مُحَمَّدٍ » .

وَكَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ أَلَّا يَخَافَ ، وَجَاءَ مِيعَادُ السَّفَرِ لِقَافِلَةِ الشَّامِ . وَسَافَرَ أَبُو لَهَبٍ مَعَ وَلَدَيْهِ ، وَحِينَ جَاءَ مِيعَادُ النُّومِ أَمَرَ أَبُو لَهَبٍ الرِّجَالَ أَنْ يَقِيمُوا سِيَاحًا حَوْلَ وَلَدَيْهِ - وَكَانَ الرِّجَالُ حَوْلَهُ كَخَطِّ بَارْلَيْفِ الَّذِي بَنَتْهُ إِسْرَائِيلُ عَلَى قَنَاةِ السُّورِيسِ لِيَمْنَعَ عَنْهَا حَيَّةُ النَّصْرِ الَّتِي جَمَلَتْ صَرْخَةُ اللَّهِ أَكْبَرَ - ثُمَّ أَصْبَحَ الصَّبْحُ فَوَجَدُوا أَنْ وَحْشًا قَدْ نَهَشَ ابْنَ أَبِي لَهَبٍ .

وَقَالَ لِلنَّاسِ ؛ كَانَ أَبُو لَهَبٍ يَخْشَى دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ ؛ وَرَغِمَ ذَلِكَ فَقَدْ تَحَقَّقَتْ . فَقَالَ وَاحِدٌ ؛ وَلَكِنْ مَجْمَدًا دَعَا أَنْ يَنْهَشَهُ كَلْبٌ وَقَالَ لَهُ « أَكَلَكِ كَلْبٌ مِنْ كِلَابِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَقُلْ فَلْيَنْهَشْكَ سَبْعٌ »^(٢) ، فَرَدَّ عَلَيْهِ مَنْ

(١) أَخْرَجَهُ السَّيْبِقِيُّ فِي دَلَالَةِ النَّبَوَةِ (٢/٣٢٨) ، وَلَوْ رَدَّهُ الْهَيْثُمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَادِ (٦/١٩٩) وَعِزَّاهُ لِلطَّبْرَانِيِّ مَرْسَلًا وَقَالَ ؛ فِيهِ زَعِيرٌ بَيْنَ الْعِلَالِ ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٢/٥٢٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَقْرِبٍ رَسَمَهُ . وَحُسْنُهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ (٤/٣٩) .

(٢) الْكَلْبُ ؛ كُلُّ سَبْعٍ عَفُورٍ ، وَمِنْهُ الْأَسَدُ . قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ ؛ غَلَبَ الْكَلْبُ عَلَى هَذَا النُّوعِ النَّاتِجِ . وَقَدْ يَكُونُ التَّكْلِيْبُ وَاقِعًا عَلَى الْقَوْدِ وَسَبَاحِ الطَّيْرِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - عَادَةُ ؛ كَلْبٌ] . رَأَيْتُ . فَتَحَ الْبَارِي (٤/٣٩) .

سمعه : وهل إذا نُسِبَ كلب الله أيكون كلباً ؟ لا بد أن يكون الكائن المنسوب لله كبيراً .

وهكذا دَقَّتْ القارعة بيت الرجل الذي أصرَّ على الكفر ، وتحقق قول الله :

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ۖ ﴾ (٣١)

[الرعد]

نعم ، فهم قد أسرفوا في الكُفْرِ والعِناد ؛ فجاءتهم القارعة ؛ والقارعة هي الشيء الذي يطرق بعنف على هاديء ساكن ، ومنها تأخذ قَرْع الباب ، وهناك فَرْق بين « تَقَرَّ الباب » و « قَرِع الباب » .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ۖ ﴾ (٣٢)

[الرعد]

يُوضِّحه أمر صلح الحديبية الذي جاء بشاره للمسلمين ؛ فقد صار كفار قريش يفاوضون رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ يبعث بالسرايا إلى المناطق المحيطة بمكة ؛ فتأتى القبائل أفراجاً وهي تعلن إسلامها ؛ ويبلغ ذلك قريشاً بأن الإسلام يواصل زحفه ؛ ثم تأتيتهم القارعة بأن يدخل الرسول ﷺ مكة ؛ ويتحقق وعد الله بأن يخطوا هم أيضاً إلى حظيرة الإسلام .

أو : أن يكون المقصود بـ :

﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ .. ﴾ (٣٦)

[الرعد]

هو مجيء يوم القيامة الذي يحمل وَعْدُ الله بأن يعْلُ عليهم ما يستحقونه من عذاب .

وفى هذا القول تطمين لمن قال لهم الحق سبحانه في أول هذه الآية :

﴿ أَقْلَمُ يَأْسٍ .. ﴾ (٣٦)

[الرعد]

ذلك أن الله لا يُخْلِفُ وعده ، وهو القائل في تذييل هذه الآية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٣٦)

[الرعد]

ونعلم أن كلمة « وَعْد » عادة تأتي في الخير ، أما كلمة « وعيد » فيه فتأتي غالباً في الشر .

والشاعر يقول :

وَإِنِّي إِذَا أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمُنْجِزٌ مِيعَادِي وَمُخْلِفٌ مَوْعِدِي

فالإيعاد دائماً يكون بشراً ؛ والوعد يعني الخير ، إلا أن بعض العرب يستعمل الاثنين . أو نستطيع أن نقول : إن المسألة بتعبير المؤمنين : أن الله سينصر المؤمنين بالقارعة التي تصيب أهل الكفر ؛ أو تأتي حول بيارهم ، وفي ذلك وَعْد يُصِيرُ به سبحانه المؤمنين : وهو في نفس الوقت وعيد بالنسبة للكافرين .

وقوله سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَافُ الْمِعَادَ﴾ (٤٦) [الرعد]

هو قضية قرآنية ستتحقق حتماً : في كل عصر وأوان ، إذا ما أخذ المسلمون بأسباب الإيمان ؛ وهي كقضية تختلف عن وعد أو وعيد البشر ؛ لأن الإنسان قد يعد أو يتوعد ؛ لكن أغيار الحياة تُصيبه ؛ فتُعمل قدرته على إنفاذ الوعد أو الوعيد .

أما حين يعد الله فالأمر يختلف ؛ لأن وعده هو وعد مطلق ؛ وهذا هو معنى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ (٢١) [الرعد]

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٣٢)

ويقال « هَذَا بفلان » أى : سخر منه ، أما « اسْتَهْزَى بفلان » أى : طلب من الغير أن يهزأ بشخص معين ، وهذا عليه إثم وإثم من أوعز له بالسخرية من هذا الشخص .

(١) أملى له : أطلال له ووسّع له فيما هو فيه من خير أو شر . [القاموس القويم ٧٣٦/٢]
وأملى الله له : أمهله وطوّله له . والإملاء : الإمهال والتأخير وإطالة العمر . [لسان العرب - جادة : ملاء] .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ۖ﴾ [الرعد]

أى : لعنتَ يدعاً يا محمد فى أن يقف بعض الكافرين منك هذا الموقف . والمثل هو الحكم بن أبى العاصى أبو مروان^(١) الذى كان يُقَلَّد مشية النبى ﷺ ؛ وكان رسول الله يعشى كأنما يتهدر من صلب^(٢) ؛ وكان يصره نائماً فى الأرض .

ولم يكن الناس مُعتادين على تلك المشية الخاشعة ؛ فقد كانوا يسرون بغرور مستعرضين مناكبهم .

وحين قَلَّد الحكم رسول الله رآه ﷺ بفور البصيرة ، فقال له ﷺ : « كُنْ عَلَى هَذَا »^(٣) ، فصارت مشيته عاهة ، بينما كانت مشية رسول الله تطامناً إلى ربه ، وتواضعاً منه ﷺ .

ونفى رسول الله ﷺ الحكم إلى الطائف ؛ وراح يرمى الغنم

(١) أسلم يوم فتح مكة ، سكن المدينة، ثم نفاه النبى ﷺ إلى الطائف ، ثم أعيد إلى المدينة فى خلافة عثمان ومات بها عام ٢٢ هـ . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٨/٢ ، ٢٩] .

(٢) عن على رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفأ كأنما ينحط عن صلب لم أر قبله ولا بعده مثله » أخرجه أحمد فى مسنده (٩٦/١ ، ٩٦) والترمذى فى سننه (٢٦٣٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٣) راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٢٨/٢ ، ٢٩) فقد أورد الصقلانى من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر قال : « كان الحكم بن أبى العاصى يجلس عند النبى ﷺ ، فإذا تكلم اختلج فبصر به النبى ﷺ فقال : « كن كذلك » فما زال يفتلج حتى مات . قال الصقلانى : « فى إسناده نظر » .

هناك ، ولم يَعْفُ النَّبِيُّ ﷺ عنه ؛ وكذلك أبو بكر في خلافته^(١) ؛ ولا عمر بن الخطاب ؛ ولكن الذي عفا عنه هو عثمان بن عفان ، وكان قريباً له^(٢) .

وشهد عثمان بن عفان وقال : « والله لقد استأذنتُ رسول الله فيه فقال لي : إن استطعت أن تعفو عنه قَاعَفُ ، وحين وكَّيتُ أمرَ المسلمين عَفَوْتُ عنه » .

وحدث من بعد ذلك أن تولى عبد الملك بن مروان أمر المسلمين ؛ وكان لابنه الوليد خَيْلٌ تتنافس مع خَيْلِ أولاد يزيد بن معاوية ؛ واحتال أولاد يزيد بالخش ، ووضعوا ما يُعرقل خَيْلَ الوليد .

وحدث خلاف بين الفريقين فشتَمَ الوليدُ أبناءَ يزيد ؛ فذهب أولاد يزيد إلى عبد الملك يشكُّون له ولده ؛ وكان الذي يشكو لا يتقن نطقَ العربية دون أخطاء ؛ فقال له عبد الملك : « مَا لَكَ لَا تَقِيمُ لِسَانَكَ مِنَ اللَّحْنِ^(٣) ؟ » فردَّ الذي يشكو ساخراً : « والله لقد أعجبتُني فصاحةُ الوليد » . ويعنى : أن حال لسان ابن عبد الملك لا يختلف عن حال

(١) روى الطبراني من حديث حذيفة قال : لما ولي أبو بكر حُكْمَ في الحكم أن يرده إلى المدينة فقال : ما كنت لأحل عقدة عقدهما رسول الله ﷺ . أورده ابن حجر المسقلائي في الإصابة (٢٨/٢) .

(٢) ذكر ابن حجر في الإصابة (٢٨/٢) أنه عمُّ عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٣) اللحن : الميل عن جهة الاستقامة . يقال : لحن فلان في كلامه إذا مال عن صحيح المنطق . وقال ابن بوي وغيره : اللحن ستة معانٍ : الخطأ في الإعراب واللغة والغناء واللفظة والتعريض والمعنى . [لسان العرب - مادة : لحن] .

لسان من يشكو : فكلامهما لا ينطق بسلاسة ، ويكثر اللحن في التطق بالعربية .

فقال عبد الملك : أتعيرني بعبد الله ابني الذي لا يتقن العربية دون لحن ؟ إن أخاه خالداً لا يلحن . وتبع ذلك بقوله : اسكت يا هذا ، فلمست في العير ولا في النفير .

وهذا مثل نقوله حالياً ، وقد جاء إلينا عبر قريش : حيث كانت السلطة فيها ذات مصدرين : مصدر العير : أي : النجارة التي تأتي من القوافل عبر الشام وقائدها أبو سفيان : والنفير : وهم القوم الذين نَفَرُوا لِنَجْدَةِ أَبِي سَفِيَانَ فِي مَوْتَةِ بَدْر : وكان يقودهم عتبة . فقال ابن يزيد : ومن أولى بالعير والنفير مني ؟ ويعنى أنه حفيد أبي سفيان من ناحية الأب : وحفيد عتبة من ناحية الأم .

وأضاف : لكن لو قلت شؤبهات وغنيمات وذكرت الطائف لكنت على حق : ورحم الله عثمان الذي عفا عن جدك ، وأرجعه من المنفى .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِلِينَ (٩٥) ﴾ [الحجر]

وكان أي إنسان يسخر من رسول الله ﷺ يلقى عقاباً إلهياً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَاَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

فأنت يا رسول الله لست بدعاً في الرسالة ، ولك أسوة في
الرسالة ، والحق سبحانه يعذك هنا في مُحْكَم كتابه :

﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ۖ (٣٦) ﴾ [الرعد]

أى : أمهلتُ الذين كفروا ، والإملاء بمعنى الإمهال ليس معناه
تَرْك العقوبة على الذَّنْب ، وإنما تأخير العقوبة لذنْب قادم ، والمثَل مر
أن تترك مخطئاً ارتكب هَفْوَةً : إلى أن يرتكب هَفْوَةً ثانية : ثم ثالثة ،
ثم تُنزل به العقاب من حيث لا يتوقع .

وإذا كان هذا ما يحدث في عالم البشر : فما بآلنا بقوة الحق
سبحان اللامتناهية ، وهو القائل :

﴿ مَسْتَدْرَجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) ﴾ [الاعراف]

ويقول تعالى :

﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرًا لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ
لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

تماماً مثلاً نجد مَنْ يصنع فخاً لعدوه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

وكلمة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

توضح أنه كان عقاباً صارماً ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في
موقع آخر :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٦) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٢٧) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٢٨) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ (٢٩) وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٠) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣١) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٢) هَلْ تُؤِثُّبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٣)﴾

[المطففين]

إذن : فسوف يلقى الذين استهزءوا بالرسول العقاب الشديد .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَبُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾

ولقائل أن يتساءل : ألم يكن من الواجب ما دام قد قال :

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (٣٣)﴾

[الرعد]

أن يأتي بالمقابل ، ويقول : كمن ليس قائماً على كل نفس بما

كسبت ؟

ولعل هذا السائل يقول : إنها عظمة القرآن الذي يترك للعقل

(١) الفك . كثير المزاح والاستهزاء بالآخرين . وهو تعالى : ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ

(٣٣)﴾ [المطففين] . يسخرون من المؤمنين ويتندررون بهم . [القاموس القريم ٢ / ٨٨] .

ما يمكن أن يستنبطه : فيأتي بأشياء تتطلب التفكير والاستنباط ، كي يتنبه الإنسان أنه يستقبل كلام ربّ حكيم ؛ وعليه أن يبحث فيه .

ولذلك يقول سيدنا عبد الله بن مسعود : « تَوَرَّأ^(١) القرآن » أي : أثيروه ، كي تكتشفوا ما فيه من كنوز .

ونحن نعلم أن كلمة « قائم على الأمر » تعني أنه هو الذي يديره ويديره ، ولا تَخْفَى عليه خافية . وجاء الحق سبحانه هنا بصيغة القيام ؛ كي نعلم أن الحق سبحانه لا يدير الأمر من حالة فعود ؛ بل يديره وهو قائم عليه ، فكل أمر هو واضح عنده غير خفي .

وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت إن خيراً فخير ؛ وإن شراً فشر . ولكنكم أيها الكافرون المشركون لا تملكون لأنفسكم ضراً ولا نفعاً ؛ فهل يمكن لعاقل أن يساوي بين الذي يقوم على أمر كل نفس ، بغيره ممّن ليس كذلك ؟

ولكن هناك ممّن قال فيهم الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ۖ ﴾ (٢٣)

[الرعد]

أي : جعلوا للقائم على أمر كلّ نفس شركاء لا يقدر الواحد فيهم على أمر نفسه ؛ وبالتالي لا يقدر على أمر غيره ؛ بل قد يُصَابُ الصنم من هؤلاء بشرخ ؛ فيأتي ممّن يعبدونه ليقوموا على أمره صارخين بأن إلههم قد انشَرخ ؛ ويحتاج إلى مسمارين لتثبيته ،

(١) تنوير القرآن : قرأتها ومناقشة الطعام به في تفسيره ومعانيه . وقيل : لِيُفَكِّرَ عَنْهُ وَيُفَكِّرَ فِي مَعَانِيهِ وَتَفْسِيرِهِ وَقِرَائَتِهِ . [لسان العرب - مادة : ثور] .

فَكَيْفَ يُسَوِّونَ ذَلِكَ الصَّنَمَ بِاللَّهِ الَّذِي لَا يَحْدُهُ شَيْءٌ وَلَا يَحُدُّ قُدْرَتُهُ شَيْءٌ ؟

وَقَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ... ﴾ (٣٣) [الرعد]

دليل على النص المحذوف : « كمن هو غير قائم على كل نفس » ،
فمُسَبِّحَانَهُ ليس كهذه الأصنام العاجزة : لأنه سُبْحَانَهُ قائم على كل
نفس : نفسك ونفس غيرك ونفس كل إنسان عاش أو سيعيش .

ولذلك يقول سُبْحَانَهُ بعدما :

﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَحْكُمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيِّظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ .. ﴾
(٣٣) [الرعد]

وهنا يأمر الحق سُبْحَانَهُ رسوله أن يقول للكافرين بالله : قولوا
أسماء مَنْ تعبدونهم من غير الله : وهى أحجار ، والأحجار لا أسماء
لها : وهم قد سَمَّوْا الأصنام بأسماء كاللآت والعزى وهبل : وهى
أسماء لم تُضَفْ ل تلك الأصنام شيئاً ، فهى لا تقدر على شيء :
ولو سَمَّوْهَا لَنُسِبَتْ لعمر بن لُحَي ، الذى أوجدتهم^(١) : وهم سَمَّوْهَا
ساعة أن نَحْنُوْهَا .

(١) قلل ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٧٧) : « حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحَيَّ
خرج من مكة إلى الشام فى بعض أمور ، قرأى التمليل يعبدون الأصنام ، فسأل لهم :
ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نحسبها ، فنسقمطرها فتتمطرنا ،
ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، نأسير به إلى أرض العرب
فيعبدوه ؟ فأسلموه صنماً يلال له هبل . فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته
وتعظيمه » .

والإله الحق لا يسميه أحد ، بل يُسمَّى هو نفسه ، ولكن بما أن المسألة كَذِب في كَذِب ، لذلك يسألهم رسول الله ﷺ عن أسماء تلك الآلهة . ويقول لهم : هل تنبئون انتم الله خالق كل الكون بما لا يعلم في كونه الذي أوجده من عدم ؟

سبحانه يعلم كل ما خلق : وأنتم لا تعبثون إلا أصناماً ينطبق عليها أنها من ظاهر القول : أى : قول لا معنى له : لأنهم أطلقوا أسماء على أشياء لا باطن لها ولا قدرة تستطيعها ، وهم اكتفوا بالظاهر والمُسمَّى غير موجود .

ويقول الحق سبحانه :

﴿بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَعَصَدُوا عَنِ الْمِيلِ -- (٢٢٢)﴾ [الرعد]

أى : أنهم ظنوا أنهم يمكرون على الله ، ويقولون إن تلك الأصنام آلهة ، وهي ليست كذلك .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ (٢٢٣)﴾ [الرعد]

أى : أن العذاب الذي يُلْقُونَه في الحياة الدنيا هو لصيانة حركة المجتمع من الفساد ، ولا بد أن يقع لهم عذاب في الحياة الدنيا ؛ ولأن مَنْ يُوْجَلْ عذابه للأخرة ؛ لا بد أن يرى في نفسه آية العذاب قبل أن يُلْقَى عذابه في الآخرة .

إذن : فعذاب الدنيا هو لصماية حركة الحياة ؛ ولذلك نجد القوانين وهي تُسنُّ لتُطبق على المتحرف ؛ وَمَنْ يَرْتَكِبِ الْجُرْمَ يخاف أن تقع

عليه العين ؛ وإن رآه أحد فهو يبلغ عنه ليلقى عقابه ؛ وبذلك تستقيم حركة الحياة .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في سورة الكهف :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ^(٨٢) إِنَّا مَكَّنَا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ^(٨٤) سَبِيلًا ^(٨٥) فَاتَّبَعَ سَبِيلًا ^(٨٦) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ^(٨٧) وَوَجَدَ عَنْهَا فُؤًا قُلْنَا يَبْنَذُ الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذَّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حَسَنًا ^(٨٨) قَالَ أَمَا مِنْ ظُلْمٍ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ^(٨٩)﴾ [الكهف]

أى : أنه قد أخذ تفويضاً بأن يقسم الأمر فى هؤلاء الناس ، فإقامته على أساس من الثواب والعقاب ؛ فمن أحسن فله الجزاء الحسن ؛ ومن أساء يلحق العقاب ، وهكذا نجد عذاب الدنيا ضرورياً لسلامة حركة الحياة من بطش من لا يؤمنون بالله .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ

وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ^(٩٤)﴾

ولهؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة عذاب فى الدنيا بالقتل والأسر والمصائب والكوارث التى لا يقدرُونَ عليها . وقَوْى

(١) السبب : الوسيلة وكل ما يتوصل به إلى شيء . [الفاموس القويم ٢١٩/١] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (١٠٢/٣) : : أى : رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط . وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه . .

ذلك لهم عذاب في الآخرة أكثر شدة من عذاب الدنيا ؛ فليس لهم من يحميهم ، أو يُقيم بينهم وبين عذاب الله وقاية أو عصمة .

وفي المقابل يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا أَمْنٌ ذَلِكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى
الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ (٣٥)

والمصدر الأساسي الذي وعد المتقين بالجنة هنا هو الله ، وقد بلغ عنه الرسل - عليهم السلام - هذا الوعد ، وتلاههم العلماء المبلغون عن الرسل .

وأنت حين تنظر إلى فعل يشيع بين عدد من المصادر ، تستطيع أن تبحث عن المصدر الأساسي ، والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَلَّى^(١) الْإِنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. ﴾ (٤٦)

[الزمر]

ويقول في موقع آخر من القرآن :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. ﴾ (١١)

[السجدة]

وهكذا تكون التوفية قد آلت إلى الله ؛ وآلت إلى ملك الموت ، وقد أخذ ملك الموت مسئولية التوفية من إسناد الحق له تلك المهمة ؛ ويكون نسبها لملك الموت هو نوع من إيضاح الطرف الذي يوكل له الحق سبحانه بتنفيذ المهمة .

(١) تولى الله فلائاً ، أو تولى الملك فلائاً ؛ أمات وتبض روحه . [القاموس القويم ٢/ ٢٤٧] .

ومرة يأتي الحق سبحانه بالمصدر الأصلي الذي يُصدر الأمر
لملك الموت بمباشرة مهمته .

وهنا في الآية الكريمة نجد قول الحق سبحانه :

﴿وَعَدَ الْمُتَّقُونَ.. (٢٥)﴾ [الرعد]

وهي مَبْنِيَةٌ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله : فالوعد منه سبحانه . ونعلم أن
الرسول ﷺ يَعِدُ أيضاً ، فها نحن قد جاء إلينا خبر بيعة العقبة :
حين أخذ البيعة من الأنصار ، وقالوا له : خُذْ لِنَفْسِكَ ، فَأَخَذَ لِنَفْسِهِ
مَا أَرَادَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَمَاذَا نَأْخُذُ نَحْنُ إِنْ أَدْبَأْنَا هَذَا ؟ فَقَالَ لَهُمْ :
لَكُمْ الْجَنَّةُ .^(١)

وقد قال ﷺ ذلك ؛ لأنَّ العمل الذي فعلوه ؛ لا يكفيه أجراً إلا
الجنة ، ومن المعقول أنْ أَىَّ واحد من الذين حضروا العقبة قد
يتعرض للموت من بعد معاهدة رسول الله ﷺ ، فلو أنه وعدهم بما
في الدنيا من متاع قد يأخذه البعض فيما بعد ؛ فالذي يموت قبل هذا
لا بُدَّ أنْ يدرك شيئاً ممَّا وعد الرسول مَنْ عاهدوه ؛ ولذلك أعطاهم
ما لا يتفقد ، وهو الوعدُ بالجنة .

والحق سبحانه هنا - في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها -
يقول :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ.. (٣٥)﴾ [الرعد]

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٤ ، ١٢٠) من حديث أبي مسعود البدرى الأنصارى .
وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٨/٦) . وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٤٢٣/٢) .

أى : أنه يضرب لنا المثل فقط ؛ لأن الألفاظ التى نتخاطبُ بها نحن قد رُضِعَتْ لِمَعَانٍ نعرفها ؛ وإذا كانت فى الجنة أشياء لم تَرَهَا عَيْنٌ ، ولم تَسْمَعْهَا أُذُنٌ ، ولم تخطر على بال بشر ؛ فمن المُمكن أن نقول : إنه لا توجد ألفاظ عندنا تؤدى معنى ما هناك ، فيضرب الله الأمثال لنا بما نراه من المخلوقات ؛ ولكن يأخذ منها المُكدرات والمُعكرات^(١) .

وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين « مثل الجنة » وبين « الجنة » ، فالمثل يعطينى صورة أسمعها عن واقع لا أعلمه ؛ لأن معنى التمثيل أن تُلحِق مجهولاً بمعلوم لتأخذ منه الحكم .

مثلاً نقول لصديق : أتعرف فلاناً ؛ فيقول لك : « لا » . فنقول له : « إنه يشبه فلاناً الذى تعرفه » .

وأنت تفعل ذلك كى تشبه مجهولاً بمعلوم ؛ لتأتى الصورة فى ذهن سامعك .

ويقول الرسول ﷺ شرحاً لما أجمله القرآن :

﴿ فِيهَا مَا تُشَبِّهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۚ ﴾ (٧١) [الزخرف]

ويضيف ﷺ : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(٢) .

(١) قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لبنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. ﴾ (٥٤) [محمد] وقال فى آية أخرى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ (٥٥) يخاف لذة الشاربين (٥٦) لا فيها غرل ولا فم عنها يتركون (٥٧) [الصافات] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٤/٥) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه .

وحين تدقق في هذا القول النبوي الكريم تجد الترقي كاملاً ؛
فقله : « ما لا أذن سمعت » جاء لأنه يعلم أن مدركات العين
محدودة بالنسبة لما تعلم الأذن : لأن الأذن تسمع ما لا تدركه
العين ؛ فهي تسمع ما يراه غيرك بالإضافة إلى ما تراه أنت .

فالأذن تسمع القريب وتسمع البعيد وتنقل صوته وتستحضره ثم
تميزه ، بخلاف العين فهي محدودة المسافة حسب قوة الإبصار ،
ومع كل فنعيم الجنة فوق كل هذا النوق .

ثم يأتي الترقي الأكبر في قوله ﴿ ولا خطر على قلب بشر » .
والخاطر أوسع من قدرة الأذن وقدرة العين ؛ فالخاطر تتخيل أشياء
قد تكون غير موجودة .

وهكذا نرى عَجَزَ اللغة عن أن توجد بها ألفاظ تعبر عن معنى
ما هو موجود بالجنة ، ولا أحد فينا يعلم ما هي الأشياء الموجودة
بالجنة ، وما دام أحد منا لم ير الجنة ؛ وما دام الرسول ﷺ قال :
« فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

فلا بد أن نعلم قدر عَجَزَ اللغة عن التعبير عما في الجنة ، فإذا
أراد الله أن يعبر عما فيها ؛ فهو يوضح لنا بالمثل ؛ لا بالوصف ،
لأنه يعلم أن لغتنا تضع الألفاظ لما هو موجود في حياتنا ؛ ولا توجد
الفاظ في لغتنا تؤدي معاني ما في الجنة .

ولذلك قال لنا الحق سبحانه :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ
لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ
مُصْفًى.. (١٥) ﴾

[محمد]

ومع أن الحق سبحانه يضرب مثلاً ، إلا أنه خلّص المثل من شوائبه التي نعرفها في الدنيا ، فالمياه عندما تجرى ؛ تكون حلوة ورائحة وصافية ؛ وإن ركدت فهي تأسن^(١) وتكون عطنة .

ولذلك يوضح لنا الحق سبحانه أن المياه في الجنة غير أسنة ؛ وأنها تكون أنهاراً منزعاً من مياهها ما يكرها .

وكذلك المثل بأنهار من لبن لم يتغير طعمه . واللبن كما نعرف هو غذاء البدو ؛ فهم يحلبون الماشية ، ويحتفظون بالبانها في قربٍ لمُدَّةٍ طويلة ؛ فيتغير طعم اللبن ؛ ولذلك يضرب لهم المثل بوجود أنهار من لبن لم يتغير طعمه .

وأيضاً يضرب المثل بوجود أنهار من عسل مُصَفًّى ، والعسل - كما نعرف - كان في الأصل يأتي من النحل الذي كان يسكن الجبال قبل استئناسه ؛ ووضعه في مناحل في الحدائق .

والحق - سبحانه وتعالى - هو القائل :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾

[النحل]

وحين بحث علماء الحشرات عن تاريخ النحل ، وجدوا أن أقدم عسل في العالم هو الذي كان موجوداً في الكهوف الجبلية ؛ ثم يليه في العمر العسل الذي جاء من خلايا النحل ؛ تلك الخلايا التي أقامها

(١) اسن الماء - تغيّرت رائحته . والماء الأسن - هو الذي لا يشربه أحد من شئته . [لسان العرب - مادة : اسن] .

النحل بعد استقناسه ؛ ومن بعد ذلك يأتى العسل الذى أقمنا نحن له
المناحل .

وقد ميزوا العسل القديم عن المتوسط عن الجديد ، بأن أحرقوا
بعضاً من كل نوع من أنواع العسل ، فنتج من الاحتراق عنصر
الكربون ؛ ومن هذا العنصر اكتشفوا عمر كل نوع من الثلاثة .

ويوضح الحق سبحانه أن بالجنة أنهاراً من عسل مُصْفًى ، وبذلك
يُقدِّم لنا خَيْرَ ما كنا نُحبُّه من عسل الدنيا ، ولكن بدون ما يُكدره .

ويوضح سبحانه أيضاً أن فى الجنة أنهاراً من خمر ، ولكنها
خمر تختلف عن خمر الدنيا ؛ فهى لا تؤثر على التكوين العضوى
للعقل ، كما أن خمر الدنيا ليس فيها لذة للشاربين ؛ لأنها من كحول
يُكوى الفم ويلسعه ؛ ولذلك تجد مَنْ يشربها وهو يسكبها فى فمه
لتمرُّ بسرعة فلا يشعر بلسعها فى فمه ، فتذهب إلى معدته مباشرة
فتلهبها .

ويختلف الحال لو كان المشروب هو شراب عصير المانجو أو
البرتقال أو القصب ؛ حيث تستطيع النفس مذاق تلك الفواكه ؛ فتجد
مَنْ يشربها يتمهل ليستيقظ أثرها فى فمه .

ويقول الحق سبحانه عن خمر أنهار الجنة :

[المانات]

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ^(١) .. (٧٧) ﴾

(١) الغَوْل : المصداغ . وقيل : السكر . والغَوْل : أن تفتال عقولهم . [لسان العرب - مادة : غول] .

أي : أنه سبحانه ينفي عن خَمَرِ أنهار الجنة كُلَّ العُكُرات التي توجد في خمر الدنيا .

إذن : فساعة تسمع مثلاً عن الجنة : فاعلم أن مَثَلْ تقريبي : لأنه لا يمكن أن تأتي الحقيقة ، حيث لا يوجد لفظ يُعَبِّرُ عنها : وهي لم توجد عندنا : وسبحانه لا يخاطبنا [لا بما نعلم من اللغة : لذلك يأتي لنا بالمَثَلِ المضروب لناخذ منه صورة تقريبية .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي رُوعِدُ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ (٣٥) [الرعد]

ونعلم أن عَصَبَ حياة العرب أيام نزول القرآن كان هو الماء : ألم يطلبوا من الرسول أن يُفَجِّرَ لهم الأنهار فجيراً^(١) ؟

نجد الحق سبحانه قد جاء بالتعبير القرآني عن أنهار الجنة بصورتين مختلفتين :

أولهما : ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ (٣٥) [الرعد]

مثلاً قال في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها .

ومرة يقول سبحانه :

﴿تَجْرِي نَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ (١٠٠) [التوبة]

والفارق بين العبارتين هو استيعاب الكمالية في النص ، بمعنى أن :

(١) قال تعالى : ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ سَتَىٰ مُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَتَّبِعُا ۝﴾ أو تكون لك جنة من ثَجَلٍ وعَصَبٍ ففَجِّرَ الأنهار خِلالها ففَجِّيراً ۝﴾ [الإسراء] .

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (٣٥)

[الرعد]

تُوضَّحُ أَنَّ مَنَابِعَ تِلْكَ الْأَنْهَارِ تَأْتِي مِنْ تَحْتِ تِلْكَ الْجَنَّةِ مُبَاشَرَةً ؛
فَلَا يَقِلُّ الْمَاءُ فِي تِلْكَ الْأَنْهَارِ أَبَدًا .

وَيُقَالُ : إِنْ الْفَارِقَ بَيْنَ أَنْهَارِ الدُّنْيَا وَأَنْهَارِ الْجَنَّةِ أَنَّ أَنْهَارَ الدُّنْيَا
عِبَارَةٌ عَنْ شَقُوقٍ فِي الْأَرْضِ لَهَا شَوَاطِئُ تَحْتَضِنُهَا : أَمَّا أَنْهَارُ
الْآخِرَةِ فَهِيَ تَسِيرُ عَلَى الْأَرْضِ دُونَ شَوَاطِئِهَا تَحْمِلُهَا^(١) .

وَتَجِدُ أَنْهَارَ الْخَمْرِ تَسِيرُ أَيْضًا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا تَتَدَاخَلُ مَعَ أَنْهَارِ
الْمَاءِ ، وَكَذَلِكَ أَنْهَارُ اللَّيْلِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ صَنْعَةِ رَبٍِّ حَكِيمٍ قَادِرٍ .
أَمَّا قَوْلُهُ :

﴿ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (١٠٠)

[التوبة]

أَيُّ - أَنَّ مَنَابِعَهَا لَيْسَتْ مِنْ تَحْتِهَا مُبَاشَرَةً ؛ وَلَكِنَّهَا تَأْتِي دُونَ
نَقْصٍ مِنْ جِهَةِ أَنْتَ لَا تَعْلَمُهَا ؛ وَهُوَ سَبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .
وَيَتَابِعُ سَبْحَانَهُ ، فَيَقُولُ عَنْ تِلْكَ الْجَنَّةِ :

﴿ أَكُلْهَا دَائِمٌ .. ﴾ (٢٥)

[الرعد]

وَالْأَكْلُ هُوَ مَا يُزَكَّلُ ، وَسَبْحَانَهُ الْفَائِلُ :

﴿ تُوْتَىٰ أَكُلْهَا كُلُّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .. ﴾ (٢٠)

[إبراهيم]

(١) لورد السيوطي في هذا أثرًا في كتابه « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » (١/٩٥) منها :

« أَخْرَجَ ابْنُ مَرْثُومٍ وَأَبُو نَعِيمٍ وَالضَّيَاءُ الْعُقَدَسِيُّ كِلَاهُمَا فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَكُمْ تَطْلِقُونَ أَنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تُخَدِّدُ فِي الْأَرْضِ ، لَا وَاللَّهِ إِنَّهَا
تَسَاحُطُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، حَافَتَانِ خِيَامِ الْوَلُؤُزِ ، وَطَيْتُهُا الْعَمْسُكَ الْأَذْفَرُ . قُلْتُ : يَا رَسُولَ
اللَّهِ مَا الْأَذْفَرُ ؟ قَالَ : الَّذِي لَا خَلْقَ مَعَهُ . »

[الرعد]

وقول : ﴿ أَكُلْهَا دَائِمًا ۖ ۝ (٢٥) ﴾

أى : لا ينقطع ، ونعلم أن الإنسان حين يأكل : فهو يفعل ذلك بهدف إشباع جوعه : وبعد أن يُشبع جوعه : قد يطلب أن يُرفع الطعام من أمامه ، إلى أن يجوع ، فيطلب الطعام من جديد .

ومن يحبون الطعام فى حياتنا الدنيا نرى الواحد منهم وهو يقول : « أشعر ببعض الضيق لأننى شبعْتُ » ، فهو فى عراك بين نفس تشتهى وبين بطن لا تشبع ، وكأنه كان يريد أن يستمر فى تناول الطعام طوال الوقت .

وقول الحق سبحانه :

[الرعد]

﴿ أَكُلْهَا دَائِمًا ۖ ۝ (٢٥) ﴾

شغل هذا القول الرومان الذين كانوا أصحاب امبراطورية عظمى رُكِّلها الإسلام بحضارته الوليدة ، وأرسل امبراطورهم مَنْ يطلب من أحد الخلفاء إرسال رجل قادر على شرح قول الحق :

[الرعد]

﴿ أَكُلْهَا دَائِمًا ۖ ۝ (٢٥) ﴾

فأرسل لهم أحد العلماء : وسأله : يقول قرآنكم إن أكل الجنة دائم : ونحن وأنتم تعلمون أن كل شىء يؤخذ منه لا بدُّ له أن ينقص : فكيف يكون أكل الجنة دائماً ؟

قال العالم لهم : هاتوا مصباحاً . فاحضروا له المصباح . واشعله أمامهم . وقال لكل منهم : قليات كل منكم بمصباحه . فاحضر كل منهم مصباحه . وقال لهم : فليشعل كل منكم مصباحه .

وهنا سألهم : ما الذى أنقصه إشعال مصابيحكم من هذا المصباح ؟
قالوا : لا شيء . فقال لهم : هكذا ضرب الله لنا المثل بأكل الجنة .

وبطبيعة الحال كان يجب أن يلتفتوا إلى أن المصباح يعتمد فى
اشتعاله على الزيت المخزون فيه ، ويأتيه منه المدد ، أما الجنة
فمددُها من الله .

وهناك مَنْ قال : هل تتفوّط فى الجنة ؟ فردّ عليه واحد من
العارفين : لا ، فتساءل : وأين تذهب بقايا ما ناكل من طعام الجنة ؟

فقال العارف بالله : مثلما تذهب بقايا ما يتغذى عليه الطفل فى
بطن أمه ؛ حيث يحترق هذا الفائض فى مَشِيمَةٍ^(١) الطفل ؛ والطفل فى
بطن أمه إنما ينمو بشكل مستمر ، مُعْتَمِداً على غذاء يأتيه من أمه
عَبْرَ الحَبْلِ السُّرِيِّ .

وكل تلك الأمور تقريبية تجعلنا نعبر الفجوة بين ما نشهده فى
حياتنا اليومية ، وبين ما أعدّه الله للمتقين ، وهو القيوم على كُلِّ أمرٍ .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا... (٢٥) ﴾

[الرعد]

يعنى : أن الطعام موجود ولا ينتهى وكذلك الظل . والظل حَبَبُ
المضىء عن مكان ؛ أو حَبَبُ مكان عن الماضىء ، ولا أحد يعلم أنه
ستوجد هناك شمس أم لا ؛ والعقل البشرى قاصر عن تخيل ذلك ؛

(١) المشيمة للمرأة هى التى يكون فيها الولد . قال ابن الأثير : يقال لما يكون فيه الولد
المشيمة والكيس والحوذان والقميص . [لسان العرب - مادة : شيم] .

فهو من فعل الله ، وهو سبحانه قادر على كل شيء .

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلٌّ خَالِدِينَ ﴾ (٥٧)

[النساء]

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَظِلٌّ مِمْدُونٌ ﴾ (٣٠)

[الواقعة]

ويتابع سبحانه :

﴿ تِلْكَ عَذَابُ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعَذَابُ الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ (٢٥)

[الرعد]

أى : يا متقى الله : ووضعت بينك وبين صفات جلاله وقاية ، ولم تقرب محاربه واتبعت منهجه : ستجد أنه سبحانه يُجازيك بصفات كماله وجماله : فيُنزلك الجنة التى وعدك بها .

لذلك إن وجدت مشقة فى التكليف فعليك ان تعلم أن جزاء تلك المشقة هو الجزاء الجميل : لأنك صدقت رسواك ﷺ حين قال : « حَفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ! وَحَفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ »^(١) .

والعاقل ساعاً يرى تكليفاً يحدُّ من حريته : فهو يستحضر الجزاء على تلك المشقة ، وهو أيضاً حين يرى أمراً يبدو فى ظاهره شهوة

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٢/٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال الترمذى : « حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح » .

عاجلة : فهو يستحضر العقاب على تلك الشهوة العاجلة فيستبجدها .

وأي من الجزاء الطيب أو العقاب قد يأتي فجأة ؛ لأن الموت لا ميعاد له ؛ ونحن نُصدِّق قول رسولنا ﷺ :

« الموت القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته » ^(١) .

ومكنا يُضخِّم الحق سبحانه من جزاء المؤمن المُتَّقِي فيعشق العمل ، ويتحمل مشاقَّ التكليف ليكون مَوْصُولًا بالجزاء الطيب ، فهذا الجزاء هو عُقْبَى العمل الحسن في الدنيا ، فالغاية الحقيقية من كل مراحل الوجود هي ألا يوجد بُعد للغاية ؛ لأنها غاية الخلود لا تعرف البعدية .

وما دامت الجنة تضمن الخلود أبداً ، فهي تستحق أن تكون غاية المؤمن وعاقبة عمله ، والتزامه بالتكاليف الإيمانية .

تماماً كما تكون النار هي عاقبة الكافرين المُكَذِّبِينَ ؛ حيث يروون الخير مصير المؤمنين ؛ ويروون الشرَّ مصيرهم ؛ فيُجمع عليهم التفتيشُ ؛ مرة بوجود الخير عند أهل الإيمان ؛ ومرة بأن يروا ما أعدَّ لهم من شرٍّ .

لذلك قال سبحانه :

﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٢٥)

[الرعد]

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
وتعني : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه في غنى كنتم عليه ، وإن ذكرتموه في ضيق وسع عليكم » الحديث .